علاء الدين العظمة
دكتوراه في التخطيط الاستراتيجي

القيادة وعصر الحكمة
Leadership & Wisdom Age

لطالما حفزتني عبارة "إدارة الذات"، أو ما يسمى بالإنكليزية "Self Management".

لعل هذه العبارة وبدون أي مبالغة تعني أن الإنسان يمتلك الخيار وبسرعة هائلة على إدارة نفسه بنفسه...هل الإنسان مهيأ لذلك، وهل المجتمعات مهيأة لهذا الأمر.

تعالوا لننظر سوية إلى سياق التاريخ وللعصور المتلاحقة للتطور الحضاري الإنساني ابتداءاً من العصر الحجري وعصر الصيد والتجميع إلى عصر الزراعة ومن ثم عصر النهضة الصناعية وبعده عصر تكنولوجيا المعلومات والمعرفة غلى عصرنا الحاضر الذي أسميه عصر الحكمة والقيادة (كما يسميه منظروا هذا القرن وعلى رأسهم البروفسور ستيفن ر.كوفي رحمه الله).

لنتخيل سوية أننا رجعنا إلى الماضي إلى عصر الصيد وتجميع الطعام حيث سيخرج أحدنا حاملاً سهمه وقوسه وحجارته ومجموعة من العصي والأخشاب لكي يقضي نهاره كله في جمع الطعام انفسه وعائلته، وكل مايحمله أحدنا في ذلك العصر هو مجموعة من القيم والأفكار والمعارف تساعده على البقاء وحفظ نوعه من الإنقراض. وفي ذلك الخضم يأتي أحد الأصدقاء ليحاول إقناعك في حرث الأرض والبدء بزراعتها وأنت تنظر إليه وهو يبذر البذار ويسقي التربة وينزع الأعشاب الضارة ويحرث الأرض وأنت لاترى أي محصول أو نتائج آنية كالتي كنت تراها في صيدك وتجميعك اليومي للطعام. وهنا ستبدأ عملية المانعة للانتقال من مرحلة لأخرى لأنك كإنسان غير مهيأ فكرياً لهذا الأمر.

وبعد قليل وعندما يبدأ صاحبك بحصد منتوج زراعته، وقطف ثماره، وجني محصوله تبدأ بالتفكير كيف أنه استطاع كمزارع أن يجني خمسين ضعفاً مما تنتجه أنت في الصيد، وكيف أنه أصبح منتجاً إلى درجة يحصّل فيها مال كاف لإرسال أولاده إلى المدرسة ومنحهم فرصاً عظيمة في الحياة، وأنت لاتكاد تقضي يومك في سد رمقك ورمق عائلتك.

و حتى تبدأ الرغبة العارمة لديك في أن تدخل في عملية تعلّم مكثّفة لتتقن فنون الزراعة والحصاد وستبدأ في تربية أولادك وإقناعهم في أن يكونوا مزارعين ناجحين بدلاً من أن يسلكوا نهجك في الصيد وتجميع الطعام، وهكذا تناقصت أعداد الصيادين وجامعي الطعام بنسبة ٩٠٪ فجميعهم فقدوا وظائفهم.

و بعد عدة أجيال بدأ الناس يبنون المصانع ودخلت علوم الصناعة وتحويل المواد الأولية إلى منجات وارتفع الإنتاج خمسين ضعف عما كانت تنتجه مزرعة الأسرة وبدأ الإنسان الزراعي يشعر بالغيرة من المصنّع، وبدأت تدخل الرغبة العارمة في تعلّم فنون الصناعة وأدواتها ومهاراتها، وبذلك ستدخل منظومة عقلية جديدة ومنهج فكري أكثر تطوراً وبذلك انخفض عدد المزارعين بنسبة ٩٠٪.

و من المفيد ذكره بأن نسبة المزارعين اليوم في الولايات المتحدة لا يتجاوز الـ ٣٪ وهم ينتجون الطعام الذي يغذي سكان الولايات المتحدة وقسم كبير من سكان العالم.

و مع تطوّر الأيام ودخول تكنولوجيا المعلومات إلى بيئة الإنتاج والتصنيع فقد أصبحت المعرفة والمعلومات محور التطوير الصناعي وأصبح الصناعي الذي يمتلك هذه التكنولوجيا ينتج خمسين ضعفاً من إنتاج الصناعي الذي لا يملكها. بل مئات الأضعاف.

بل وأصبح عمال المعرفة والتكنولوجيا هم محور العمل الصناعي وجوهر رأس المال المستثمر.

فمن خلال التركيز والابتكار ستتحقق أهداف المؤسسة وسترتفع إنتاجيتها وأرباحها بشكل مذهل. وبذلك انخفض عدد ونسبة القوة العاملة العادية أمام القوة العاملة المعتمدة على المعرفة والتكنولوجيا.

إنّ تعلّم منظومة عقلية جديدة أو منظومة جديدة من المهارات والأدوات المناسبة لكل عصر سينقل البشرية من عصر إلى آخر أكثر تطوراً ولعل المنظومة الجديدة في عالمنا المعاصر هو تحدّي إداري قيادي لزيادة إنتاجية الأفراد والمؤسسات، بل التجمعات والدول والقارات.

و سأقول للسادة الصناعيين والمنتجين وأصحاب الأعمال من الرعيل السابق الذين يديرون أعمالهم بأسلوب العصر الصناعي المتحكم في عصرنا عصر عمال المعرفة والحكمة والقيادة، كفاكم فأنتم لا تفون بالغرض وأنتم محرقة لعالم الأعمال التي ترأسونها، ويضحكني شيٌ متكرر تذكرونه في جداول الميزانيات وهو وضع الموارد البشرية في عامود النفقات وتضعون الآلات في عامود الاستثمارات. كفاكم فعصرنا عصر الحكمة والإدارة والقيادة ومتطلبات هذا العصر يلزمها منظومة فكرية جديدة تؤمن أولاً وأخيراً بالإنسان وتطويره وتنميته.

إنّ مفهوم عصر الحكم والقيادة هو الذي سيعمل على تغيير هذا المنظور والانتقال بالبشرية نحو عصر آخر يرتكز على الإنسان وتفجير طاقاته واستثمار مواهبه والعبقريات الكامنة في النفوس البشرية.

ينبغي على الإنسان أن يؤمن بأن القيادة هي الخيار الأمثل للتطور وأن فلسفة الإدارة هي التي تقود الأداء والتواصل والتعويضات والمكافآت والتدريب والمعلومات والأفكار الرائعة والأنظمة التي تستثمر مواهب الإنسان لإحراز النصر الجماعي المنشود.

أختم بمقولة لألبرت أنشتاين: "إنّ المشاكل المهمة التي تواجهنا اليوم لا يمكن أن تحل بنفس مستوى التفكير الذي سبب هذه المشاكل".

يتبع في العدد القادم بإذن الله...